الفصل الثانى والعشرون

العباسيون

٥٧٦ — ٥٨٩ هـ ؛ ١١٨١ — ١١٩٣ م

الصليبيون

الخليفة الناصر — الملك الصالح إسمعيل ، أمير دمشق — صلاح الدين الأيوبى يدعى إلى دمشق — الحرب بين صلاح الدين والملك الصالح — تولية صلاح الدين على سوريا — تلقيبه السلطان — وفاة الملك الصالح — سلطة صلاح الدين — مملكة بيت المقدس — الصليبيون ينكثون بشروط المهادنة — موقعة طبرية — انهزام الصليبيين — الاستيلاء على عكا ونابلس وأريحا وغيرها — حصار القدس — شروطها — مروءة صلاح الدين — الحرب الصليبية الثالثة — حصار عكا — دفاعها المستميت وانهزام الصليبيين — وفاة فردريك باربا روسا — وصول ملكى فرنسا وانكلترا — الاستيلاء على عكا — قسوة ريكاردوس (قلب الأسد) — صلاح الدين يقوض عسقلان — الصلح مع ريكاردوس وفاة صلاح الدين — صفاته وأخلاقه

الملك الصالح ابن نور الدين محمود

وعندما بلغ صلاح الدين خبر وفاة سيده وولى نعمته ، كتب فى الحال إلى الملك الصالح كتابا يعزيه فيه على وفاة أبيه ويهنئه باعتلائه العرش ، كما قدم إليه فى الوقت نفسه الهدايا الممتازة دلالة على خضوعه وولائه التام ، كذلك يقال إنه بر بوعده ، وبقى متمسكا بالدعاء له فى خطبة الجمعة ، وبضرب النقود باسمه ، وهما ميزتان من أظهر ميزات السلطة العليا . غير أن الملك الشاب لم يلبث أن وقع تحت نفوذ وزرائه وبطانته ، فنشب الخلاف بينه وبين صلاح الدين الذى استاء من الدسائس التى كانت تحاك ضده ، وبعث إلى وزراء الملك كتابا شديد اللهجة يحذرهم فيه بمغبة الخيانة ، ويهددهم بأنه سيأتى بنفسه إلى دمشق لمعاقبتهم على

سوء تصرفهم ، فلما استلم الأمير « كمشتكين » ذلك الكتاب أسرع إلى حلب كى يطلع عليه الملك الصالح بنفسه تاركا دمشق تحت رحمة الفرنج ، الذين انتهزوا تلك الفرصة وحاصروا المدينة حصاراً شديداً لم يرفعوه إلا بعد أن دفع أهلها الجزية عن يد وهم صاغرون ، فاستشاط صلاح الدين غضبا عندما بلغه هذا الخبر . ويقال إن أحد كبار دمشق[1] كان قد استدعاه وقتئذ ليحتل المدينة ، وعلى هذا سار فى سبعمائة جندى واستولى عليها عنوة ، غير أنه لم ينزل قصر نور الدين بل حل دار والده التى كان يسكنها وقت أن كان فى دمشق ، ثم أرسل إلى أتابك الشام كتابا رقيق الحاشية يعرب فيه عن ولائه وشدة احترامه لمولاه ، مؤكداً له أنه إنما جاء إلى الشام ليؤدى إليه فريضة الطاعة ، فجاءه رد شديد اللهجة . ويقال إن الملك بدلا من أن يثنى على إخلاصه وولائه اتهمه بنكران الجميل والتمرد والعصيان ، فسخط صلاح الدين وزحف على حلب كى يقابل بنفسه الملك الصالح ويسوى الأمر معه شخصياً . غير أن الملك لم يرض على هذا التصرف وقد كان عمره وقتئذ اثنتى عشرة سنة ؛ فسار فى السوق وهو يخاطب الناس قائلا « قد عرفتم إحسان أبى إليكم ، ومحبته لكم ، وسيرته فيكم ؛ وقد جاء هذا الظالم الجاحد إحسان والدى إليه يأخذ بلدى » ، فخرج أهالى حلب شاكى السلاح . ولما رآهم صلاح الدين على هذا النحو خاطبهم قائلا : « يعلم الله أنى لم أرم قط إلى إشهار السلاح فى وجه الملك ، ولكنهم طالما أرادوا ذلك فليكن كما يريدون » . وعندئذ دار قتال رائع بين الفريقين أسفر عن هزيمة أهل حلب وفرارهم إلى المدينة . فلما أحس كمشتكين بعجزه حرض الإسماعيليين على قتله ، وكاد يفلح فى تنفيذ خطته لولا أن صلاح الدين كان قد احتاط للأمر ، وعندما فشل وصى الملك الشاب فى مؤامرته التجأ إلى الصليبيين ، كما استنجد فى الوقت

(١) شمس الدين بن المقدم (المعرب)

نفسه بسيف الدين غازى أتابك الموصل[1] ؛ فهب الصليبيون إلى الأخذ بناصره وحاصروا حمص ، ولكنهم عندما علموا أن صلاح الدين يزحف عليهم بجيشه الجرار فكوا الحصار وولوا هاربين . وقد حاول صلاح الدين مرة أخرى أن يتفاهم وديا مع الملك الصالح فأرسل إليه كتابا رقيق الحاشية يعرض فيه استعداده إلى رد حماه وحمص وبعلبك على شرط أن يقره على ولاية دمشق ومصر ، غير أن الملك رفض إجابة سؤله رفضاً باتا .

ولما فشلت تلك السياسة السلمية التجأ صلاح الدين إلى إشهار السلاح ، وحاصر مدينة حلب حصاراً شديداً حتى اضطر كمشتكين وسيف الدين غازى إلى أن يطلبا الصلح ، كما أرسلا ابنة نور الدين الطفلة لعلها تثير فى قلبه عوامل الشفقة ، فاستقبلها صلاح الدين استقبالا وديا وحباها بعطفه كما أغدق عليها العطايا والمنح ونزولا على طلبها رد إلى أخيها جميع المدن التى كان قد استولى عليها من إمارة حلب ، ولكنه مع ذلك أوقف الدعاء فى الخطبة باسم الملك الصالح وحول أنظاره شطر الخليفة العباسى « مصدر النفوذ الشرعى » طالبا منه أن يقره على ملكه ؛ فلم يعتم الخليفة أن منحه طلبه وأنعم عليه فوق ذلك بلقب « السلطان » .

صلاح الدين يلقب بالسلطان

وفى عام ٥٧٩ هـ توفى الملك الصالح فى سن التاسعة عشرة ، وولى بعده ابن عمه عز الدين الذى كان قد خلف سيف الدين فى أتابكية الموصل ، واستولى على حلب بعد أن عوض أخاه عماد الدين عنها أتابكية سنجار ؛ وما طال الزمن حتى اعترف بسلطة صلاح الدين ، وحذا حذوه أمير الموصل على أن يقره على البلاد الواقعة بين دجلة والفرات ؛ وهكذا لم تكد تنتهى سنة ١١٨٢ حتى غدا صلاح الدين السيد الأعلى فى آسيا الغربية ، ومن جملتها سلطنة قونية وإمارة أرمينيا[2] ، وأصبح له الحق فى إلزام أمراء هاتيك المناطق بمساعدته وقت الطوارئ .

وفاة الملك الصالح ١١٨١ — ١١٨٢ م

٥٧٦ — ٥٧٩ هـ

سلطة صلاح الدين

(١) ابن عم الملك الصالح .
(٢) وعاصمتها خلات وكان يحكمها أمير مسلم .

مملكة بيت المقدس

وقد كانت مملكة القدس الصليبية وقتئذ تعتمد فى الحصول على الرجال والمواد الحربية والطعام على جميع أنحاء العالم الأوربى وأمرائه الذين يتوقون إلى « إعلاء كلمة الله » ، والمغامرة فى الحصول على الكنوز الطائلة ، والثروات العريضة ، ومناصرة المتهوسين المتفانين فى مقاتلة الكفار ، كما كانت تعتمد أيضاً على طريدى العدالة الذين كانوا يتدفقون بكثرة على سواحل الشام ؛ وكان أمورى قد توفى وخلفه ابنه على العرش ، غير أنه كان مصابا بمرض معد[1] جعله أجدر بالرثاء منه إلى إدارة شؤون الدولة ، فتزوجت أخته أزبيلا من أمير مونتفرات ، وولدت له طفلا أسماه « بلدوين » . ولما توفى زوجها تزوجت ثانية من كيديلسكنان الذى عينه بلدوين نائباً عنه ، ولكنه سرعان ما عزله ونصب مكانه « ريموند » أمير طرابلس الذى لم يلبث أن تنازل عن العرش لابن أخته بلدوين الخامس ، ولم يكن قد ناهز بعد الخامسة من عمره . والمظنون أن الملك الطفل قتل بإيعاز من أمه ، وسواء أكانت هذه الرواية صحيحة أم مختلقة ، فالمعروف أن « أزبيلا » على أثر وفاة ابنها نادت بنفسها ملكة على القدس ، ووضعت بيدها تاج الملك على مفرق زوجها ؛ وهكذا انتقل عرش فلسطين فى سنة ١١٨٧ إلى أزبيلا وزوجها « ليسكنان » . وفى عهد بلدوين المجذوم عقدت معاهدة صلح بين السلطان والفرنج ؛ ويقول ميشو : « إن هذه الهدنة جديرة بالملاحظة ، إذ أن المسلمين كانوا جد حريصين على تنفيذ أحكامها فى حين لم يتقيد المسيحيون بشروطها قط ، كما ظهر عليهم ميل شديد إلى إشهار الحرب من جديد ؛ وكان ريجينولد[2] زوج كونستانس أرملة ريموند قد وقع أسيراً فى قبضة نور الدين محمود مدى حين ، وما كاد الملك الصالح يفك سراحه حتى

أزبيلا وليسكنان ١١٨٧ م

١١٨١ — ١١٩٣ م

(١) كان مجذوماً .
(٢) ويسميه العرب أرناط .

تزوج من أرملة هانفرى ، التى حصل بزواجه منها على إمارتى حصن الكرك ومونتريال .

الفرنج ينقضون شروط المعاهدة ١١٨٦ م

وفى سنة ١١٨٦ نقض « ريجنولد » شروط المعاهدة ، وانقض بجيشه على إحدى القوافل المارة بالقرب من حصنه ، وذبح عدداً غير قليل منهم بعد أن سلب أموالهم ، فغضب السلطان غضباً شديداً وطلب من حاكم القدس أن يعاقب المعتدى ، ولما رفض الملك إجابة طلبه أخذ « صلاح الدين » على عاتقه تأديب « ريجنولد » ، وحاصر بنفسه الحصن الذى وقعت بقربه تلك المأساة الدامية ، كما أرسل إلى الجليل قوة صغيرة بقيادة أكبر أبنائه « على » الملقب بالملك الأفضل لمراقبة حركات الفرنج ؛ فلم يكد الصليبيون يعلمون بوجوده حتى وحدوا صفوفهم وزحفوا عليه ، فأسرع السلطان إلى نجدة ابنه ، وكانت الكفتان متعادلتين فى القوة والسلاح ؛ فعسكر جيش الفرنج فى سهول «صفورية» ، ولكن صلاح الدين استطاع بمهارته الحربية أن يحرضهم على الخروج من مكنهم المنيع إلى واد مكشوف بين الجبال الواقعة بمقربة من بحيرة طبرية فى تل حطين ، فسار الفرنج كأنهم جبال تتحرك شطر البحيرة ، ولكن جنود السلطان أخذوا أهبتهم وقطعوا عليهم الماء ، فتقابل الفريقان يوم الخميس ٢ تموز بعد أن قضى السلطان طوال الليل يهيئ الصفوف ، ودارت معركة رائعة بينهما يوم الجمعة وصباح السبت المصادف ٢٥ ربيع الثانى سنة ٥٨٣ هـ ، فأسفرت عن تقويض دعائم دولة كيديلسكنان بعد أن أثخن فيهم المسلمون ، وقتلوا منهم عشرة آلاف من بينهم جماعة من أشهر القواد ؛ وكان من جملة الذين وقعوا أسرى فى أيدى المسلمين كيديلسكنان نفسه ، وأخوه جوفرى ، ورينود صاحب الكرك (مثير هذه الحرب الشعواء) وابن هانفرى ، وكونت هوغ ، وابن لورد طبرية ؛ ولم ينج من الأسر غير ريموند أمير طرابلس ، وأمير طبرية ، ورينود ، وابن أمير أنطاكية ويليان ، إذ أفلتوا جميعاً من القوة التى تعقبتهم ووصلوا إلى الساحل . أما

٥٧٦ـ٥٨٩ هـ

٢٣و٢٤ ربيع الثانى ٥٨٣ هـ

٢و٣ تموز ١١٨٧ م

موقعة طبرية ٤ تموز ١١٨٧م

كيديلسكنان فقد عومل معاملة حسنة ، غير أن السلطان أمر بقتل « رينود » وبعض القواد الآخرين الذين كانوا قد أخلوا بشروط المعاهدة وذبحوا المسلمين خلال الهدنة ؛ كذلك لم يمهل الأعداء حتى يلموا شعثهم ، بل واصل مطاردتهم بعد موقعة حطين ، وما هو إلا أن استولى على حصن طبرية ووقعت فى قبضته زوجة ريموند أمير طرابلس فردها إلى زوجها معززة مكرمة . ويقول المؤرخون إن المسلمين لم يسئ أحد منهم قط إلى النساء والأطفال . ومما يؤثر عن بطولتهم أنهم طيلة استيلائهم على عكا قاوموا الجيوش المسيحية مقاومة عنيفة مدة سنتين كاملتين ، غير أن تلك المدينة وهى فى قبضة الصليبيين لم تستطع الدفاع عن نفسها غير يومين ثم أذعنت بالتسليم إلى صلاح الدين ، وحذت حذوها نابلس وأريحا ، والرملة ، وقيصرية ، وأرصوف ، ويافا ، وبيروت ، وعدة مدن أخرى بحيث لم يبق فى أيدى الصليبيين غير صور ، وطرابلس ، وعسقلان التى قدمت طاعتها وفازت بشروط مرضية بعد حصار لم يدم طويلا .

١١٨١ — ١١٩٣ م

ومن ثم توجه السلطان صوب القدس التى كانت تضم داخل أسوارها زهاء الستين ألف جندى علاوة على سكانها الأصليين ، وحالما أشرف على المدينة بعث فى طلب أشرافها وخاطبهم بقوله : « إنه يحترم مدينة القدس ولا يرغب فى انتهاك حرمتها بإراقة الدماء ، ولهذا ينصحهم بترك استحكاماتهم . أما هو فيتعهد من جهته بأن يعوضهم عن أملاكهم بالأموال والأراضى » ، غير أن الصليبيين لتعصبهم الممقوت رفضوا تلبية هذا الطلب المنطوى على شىء كثير من السخاء ؛ فسخط عليهم صلاح الدين وحاصر المدينة مدى حين . ولكن الصليبيين عادوا وطلبوا الصلح « باسم إله جميع البشر » ، فتغلب عطف السلطان على رغبته فى الانتقام ، وسمح للروم ونصارى القدس بالسكنى فى بلاده بعد أن ضمن لهم التمتع بالحرية التامة ، كذلك أمر جميع جنود الصليبيين داخل المدينة بأن يرحلوا مع عائلاتهم وأطفالهم ، وضرب لهم موعداً ٤٠ يوما ، كما ضمن لهم سلامة الرحيل إلى

بيت المقدس

مروءة صلاح الدين وإنسانيته

صور أو طرابلس ، وحدد فدية الرجل بعشرة دنانير شامية وخمس دنانير للمرأة ودينار واحد للطفل . ٥٧٦ـ٥٨٩ هـ

مروءة صلاح الدين وإنسانيته

وكان من شروط الصلح أن من يعجز عن أداء الفدية يؤخذ أسيراً ، غير أن ذلك الشرط أهمل إهمالا تاما ، إذ يقال إن السلطان افتدى وحده عشرة آلاف شخص ، كما أطلق أخوه سيف الدين[1] سراح سبعة آلاف أخرى ؛ وقد كان رجال الدين عند ما غادروا المدينة يحملون معهم الأموال والأمتعة ، كذلك شوهد كثير من النصارى يحملون والديهم وأصدقاءهم الذين بلغ بهم المرض أو الضعف حدا لم يستطيعوا معه السير على الأقدام ، فتأثر السلطان بهذا المنظر وأمر حالا أن توزع عليهم الصدقات ، وأن يزودوا بالدواب ؛ ولما استأذنته الملكة « أز بيلا » وكان يصحبها بعض الأمراء أذن لها بالسفر وحباها بكرمه الفياض ، وكان معها وقتئذ رهط من النساء اللواتى كن يعولن بالصياح والنحيب وهن حاملات أطفالهن ، فلما اقتربن منه ناشدنه أن يفك سراح أزواجهن وأولادهن وإخوانهن قائلات إنهن سيتركن هذه البلاد من غير ما رجعة ، فإذا فقدن رجالهن ، فإنما يفقدن أملهن الوحيد فى الحياة ، ولو أشفق عليهن وردهم إليهن لأزال بؤسهن ، وأحيا فيهن موات الأمل ، فحسن سعيدات بفيض كرمه وواسع رحمته ، فتأثر صلاح الدين أى تأثر بتوسلاتهن ؛ وفى الحال أمر برد الأسرى إلى أقاربهن ، ووعد فوق ذلك بمعاملة الباقين منهم بالعطف والرأفة ، كما وزع الصدقات على اليتامى والأرامل ، وسمح لرجال الصحة وإن كانوا قد شهروا السلاح عليه بأن يواصلوا إسعاف الجرحى ومعالجة المرضى والعناية بالحجاج المسيحيين . ويمكننا بعد هذه الإلمامة القصيرة أن ندرك البون الشاسع والفرق المدهش بين صفات صلاح الدين السمحة ، وبين قسوة الأمراء المسيحيين ووحشيتهم . ويقول ميلز بهذا الصدد : « إن كثيراً من المسيحيين الذين غادروا ١١٨١ — ١١٩٣ م

(١) سيف الدين أبو بكر الملقب بالملك العادل .

بيت المقدس رحلوا إلى أنطاكية ، غير أن بوهيموند أميرها لم يحرمهم الضيافة فحسب بل سلبهم أيضاً أموالهم ، فى حين كان هؤلاء البائسون أينما ساروا فى بلاد المسلمين يلاقون ضروب العطف والكرم » ؛ ويسوق المسيو « ميشو » بعض الأدلة المدهشة عن قسوة قلوب النصارى المحليين نحو منفيي بيت المقدس فيقول : « إن هؤلاء المساكين المنكودى الحظ بعد ما لاقوا صدا من إخوانهم نصارى الشرق هاموا على وجوههم فى الشام ، حتى عضهم الجوع بأنيابه الضروس ، ومات الكثير منهم جوعا وكمداً ، كما أغلقت طرابلس أبوابها دونهم حتى بلغ اليأس بإحدى النساء مبلغاً عظيما ، وألقت ابنها الطفل فى اليم ، وهى تلعن النصارى الذين رفضوا مساعدتها » .

ومما يثير الإعجاب أن السلطان صلاح الدين احترم شعور المغلوبين ، فلم يدخل المدينة بجيشه الجرار إلا بعد أن غادرها جميع الصليبيين . وفى يوم الجمعة ٢٧ رجب[1] سنة ٥٨٣ دخل بيت المقدس يحف به الأمراء وأشراف الإمبراطورية الذين جاءوا لتهنئته على هذا النصر المبين ، فأمر بترميم ما دمرته الحروب ، وتشييد الجوامع والكليات التى هدمها الفرنج ، ووضع أساساً حكيما لإدارة دولاب الدولة يختلف كل الاختلاف عن حكومة الصليبيين المستبدة ؛ ومن ثم توجه إلى « صور » التى كان الصليبيون قد نزلوها بعد فك سراحهم ، وقويت بهم حامية المدينة ، وتهيأت للمقاومة بقيادة كونراد مركيز مونتفرات[2] ، وكان رجلا قديراً ، واسع الحيلة والدهاء ، فرفض تسليم المدينة بحجة أنه خاضع لملك فيما وراء البحار ، فتحول السلطان عنها إلى حين وسار حذاء ساحل البحر ، واستولى بالتتابع على اللاذقية ، وجبلة ، وصهيون ، وبيكاس ، وبوزير ، ودير برساك ، وحصون أخرى كانت لا تزال فى أيدى الصليبيين ، ثم أفرج عن « كيديلسكنان » ٥٧٦–٥٨٩ هـ

(١) يوم المعراج .
(٢) ويسميه العرب مركس .

الذى أقسم له بشرفه أن يغادر البلاد إلى أوربا ، ولـكنه ما إن شم نسيم الحرية حتى نقض عهده ، وحشد جيشاً لجباً من فلول الحاميات الصليبية والقوات الآتية من الغرب ، ثم حاصر مدينة عكا التى تحولت إليها الآن أنظار القارات الثلاث ، وحصروا اهتمامهم بها مدة سنتين كاملتين .

الحرب الصليبية الثالثة

أحدث سقوط مدينة القدس دويا هائلا فى العالم المسيحى ، وأفرغ رجال الـكهنوت جهودهم فى الاستنجاد بالشعوب المسيحية والاستجارة بالملوك والأمراء وإقناعهم بإشهار حرب صليبية أخرى ؛ فتكللت جهودهم بالنجاح التام وانهالت النجدات على صور والمعسكر الضارب بقرب عكا ، واشترك ثلاثة ملوك من أعظم ملوك المسيحيين شأنا فى تلك الحرب الشعواء ، وهم : فريدريك باربا روسا إمبراطور ألمانيا ، وفليب أوغسطوس ملك فرنسا ، وريكاردوس قلب الأسد ملك انكلترا . ولو أن صلاح الدين — بما اشتهر به من بعد النظر والهمة — وحّد يومئذ أسطولى مصر والشام وضرب حصاراً على السواحل الفينيقية لعرقل مساعى الصليبيين وشل حركتهم فى فلسطين ، وحال دون إنزال القوات الجديدة التى سارعت إلى نجدة إخوانهم ؛ ولـكنه على ما يلوح نسى أن سلامة البلاد الفينيقية تتوقف على مناعتها من البحر ، وأن النصر فى البر مهما كانت خطورته لا يضمن منع ورود النجدات بطريق البحر ؛ ومما لا شك فيه أن السفن الأوربية كانت تمدهم يومياً بالأقوات والذخائر ، والعدد والرجال . ويقول المؤرخون أمثال ابن الأثير وابن شداد بهذا الصدد : « كان صلاح الدين يبقى على سكان المدن التى يفتحها كما كان يؤمنهم على أموالهم ومتاعهم . والمعروف أن الفرنج كانوا يهرعون إلى صور بأموالهم ونسائهم وأطفالهم حتى تجمع منهم عدد عظيم ، وطفقت تردهم النجدات من وراء البحار » . ويقول الرواة : إن رؤساء النصارى تذرعوا بكل وسيلة لإثارة روح التعصب فى شعوب أوروبا كافة . أما بطريرك القدس الذى كان صلاح الدين قد أحسن معاملته فقد أخذ يطوف المدن الأوربية حاملا

١١٨١ — ١١٩٣ م

صورة المسيح ، وقد جرحه أحد الأعراب ليحثهم بذلك على أخذ الثأر ؛ فعظم الأمر على الفرنج ، وفى الحال حشدوا جيشاً ضخما انتظم فى عقده عدد كبير من النساء . ويروى لنا شاب مسيحى أخذ أسيراً « أنه وحيد أرملة فقيرة لا تملك من حطام الدنيا غير بيت واحد باعته وجهزته بثمنه وسيرته لمحاربة المسلمين » .

بدء حصار عكا ١٥ رجب سنة ٥٨٥ هـ ٢٦ آب ١١٨٩ م

وهكذا تدفقت جموع الفرنج براً وبحراً من كل فج عميق . ولما اجتمعوا بمدينة صور رأوا أن أول ما ينبغى لهم القيام به هو مهاجمة « صيدا » ، ولكنهم عادوا واتفقوا على الزحف على عكا ومحاصرتها ؛ فساروا إليها حذاء البحر ، وكانت تحميهم من جهة البحر نيران أساطيلهم ، وفى الواقع كان البحر أعظم ملاذ لهم حيث كانت السفن تمخر عبابه لنقل الأقوات والرجال والمواد الحربية من الخارج وفى ١٥ رجب سنة ٥٨٥ أنزلوا جيوشهم بالقرب من المدينة ، وضربوا حولها حصاراً شديداً ، وعند ما بلغ صلاح الدين خبر هذا الزحف جمع أمراءه واستشارهم ، وكان فى رأيه أن يشتبك معهم فى القتال أثناء زحفهم ، غير أن أمراء الجيش أثنوه عن عزمه ونصحوا له أن يهاجمهم فى ميدان مكشوف بالقرب من عكا ؛ فلما وصل صلاح الدين تلك المدينة رأى الصليبيين قد نزلوا عليها وأقاموا جناحيهم على البحر ، وبذلك قطعوا عنها جميع المواصلات البرية ، ويقول ابن الأثير : « لو أن العسكر اتبعت رأى صلاح الدين فى مسايرتهم ومقاتلتهم قبل نزولهم على عكا لكان بلغ غرضه وصدهم عنها ، ولكن إذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه » ، فعسكر السلطان أمام الصليبيين وضرب خيمته على « تل كيسان » كما امتدت ميمنته إلى تل « الفياضية » وميسرته إلى نهر بيلوس[1] ثم أخذت ترده القوات بطريق البر من الموصل ، وديار بكر ، وسنجار ، وحوران . وفى مستهل شعبان سنة ٥٨٥ هـ انقضت القوة الرئيسية على الصليبيين انقضاض الصاعقة ، كما حمل عليهم فى الوقت نفسه تقى الدين ابن أخى صلاح الدين حملة

(١) يسميه ابن الأثير النهر الجارى . ويسميه ابن شداد نهر اكلو .

عنيفة فأجلوهم عن مواقعهم . ويقول ابن الأثير : « لو أن المسلمين لزموا قتالهم إلى الليل لبلغوا ما أرادوه فإن للصدمة الأولى روعة ، ولكنهم لما نالوا منهم هذا القدر أخلدوا إلى الراحة وتركوا القتال ، وقالوا نباكرهم غداً » . كذلك كان صلاح الدين قد استبدل الحامية بقوة جديدة ، وجهز عكا بالذخائر والأموال والسلاح ؛ وكان من جملة الأمراء الذين دخلوا المدينة وقتئذ حسام الدين [1] « أبو الهيجاء الملقب بالسمين » . وفى السادس من شعبان بدأ هجوم الفرنج فهبوا من حصونهم وحملوا على المسلمين حملة صادقة فصمد لهم المسلمون ، ودارت رحى القتال بين الفريقين حتى اضطروا الفرنج إلى التقهقر مثخنين بالخسائر والجرحى .

ومما يلاحظ أن جيوش صلاح الدين كانت وقتئذ موزعة على جميع أنحاء البلاد ، فكانت ثمة فرقة تراقب « البيمند » أمير أنطاكية ، وأخرى معسكرة فى حمص تقابل طرابلس ، وثالثة تراقب صور ، ورابعة فى دمياط والإسكندرية وغيرها من المدن لحماية الثغور المصرية من غزو الفرنج من البحر ؛ وبالرغم من كثرة النجدات التى كانت ترد على صلاح الدين فقد بقيت قوته مع ذلك أقل عدداً من قوة الصليبيين الذين اعتزموا فى ذلك الحين على سحقه قبل أن تصله قوات جديدة ، فدارت بين الفريقين رحى القتال ، ورجحت كفة الصليبيين فى بادئ الأمر ، ولكنهم لم يلبثوا أن منوا بشر هزيمة بعد أن تكبدوا خسائر فادحة ، وبلغ عدد القتلى فى صفوفهم نحو عشرة آلاف . وبالرغم من الجهود التى بذلها صلاح الدين فى تنظيف ميدان القتال ، وإلقاء جثث القتلى فى البحر ، فقد فسد الجو والهواء من نتن الجثث المكدسة فى الميدان ، وانتشر من جراء ذلك وباء مريع وصلت عدواه إلى السلطان نفسه ، فأشار عليه الأطباء والقواد بالانسحاب بجيوشه إلى الخروبة ، ولكنهم ما كادوا يغادرون ذلك الموقع حتى

---

(١) كان من أمراء عسكر صلاح الدين وهو من الأكراد الحطية من بلدة أربيل . (المعرب)

استولى عليه الفرنج واستأنفوا حصار عكا . ويقال إنهم لأجل أن يحموا أنفسهم من هجوم صلاح الدين حفروا خندقا عميقاً حول المعسكر ، وشيدوا وراءه سوراً عالياً ليتحصنوا به فيما إذا عاد المسلمون إلى قتالهم وأصابتهم الهزيمة . وبعد أن قضى صلاح الدين الشتاء فى الخروبة هبط فى ربيع سنة ١١٩٠ إلى سهول عكا وحصن فيها مواقعه الأمامية . أما الفرنج فكانوا فى مدة مقامهم على حصار عكا قد شيدوا أبراجا خشبية شاهقة يملأونها بالجنود ويهاجمون بها حصون المدينة ، كذلك كان المحصورون قد استعدوا فى نفس الوقت لصد الهجوم بإشراف أحد المهندسين من أهل دمشق ، وأخذوا يقذفون الصليبيين بالقال الملآنة بالنفط المشتعل حتى اندلعت ألسنة النيران فى البروج المتحركة (الدبابات) ، كما هاجم أسطول مصر أسطول الفرنج وألحق به أفدح الخسائر بالقرب من ميناء عكا . وتقول لنا الرواية إنه سرت إشاعة وقتئذ فى معسكر المسلمين أدخلت على قلوبهم الرعب والقلق ، وهى أن « فردريك بار باروسا » ملك الألمان أخذ يزحف بجيشه الجرار على فلسطين ، وأن التركمان يعرقلون سيره بمناوأة جناحيه إلا أنه برغم ذلك نجح أخيراً فى الوصول إلى بلاد الأرمن « كليكيا العليا » التى كان يحكمها ليون « الافون » بن أصفانه ؛ فبعث السلطان إلى حلفائه يستنصرهم ، كما أرسل وفداً إلى يعقوب المنصور سلطان مراكش ، ولكنهم جميعاً خذلوه وأعرضوا عن مساعدته ؛ وفيما كان الألمان يزحفون على أنطاكية اتفق أن غرق ملكهم فى نهر السلاف بالقرب من سلوقية ، فانتشرت الفوضى بينهم ، ورجع على الأثر عدد كبير منهم إلى بلادهم ، وعلى هذا لم يزحف على فلسطين إلا شرذمة قليلة بقيادة ابنه ، ومن ثم أقلعوا على إحدى السفن ، فغرق معظمهم فى اليم .

فردريك باربا روسا

١٠ — ٦ — ١١٩٠ م

١١٨١ — ١١٩٣ م

وفى العشرين من جمادى الآخرة سنة ٥٨٦ خرج الفرنج من معاقلهم واقتتلوا مع المسلمين قتالا شديداً ، ولكنهم لم يلبثوا أن فروا هاربين ، تاركين وراءهم

٢٠ جمادى الآخرة ٥٨٦ هـ

عدداً لا يحصى من القتلى والجرحى ، فازدادوا بذلك وهناً على وهن ؛ غير أنه لم يمض سوى يومين حتى أتت إلى الفرنج قوة هائلة من صوب البحر برئاسة (الكونت هنرى[1]) ابن أخى ملك الفرنسيس وقريب ملك الإنكليز ، ولما وصل إلى الساحل أنزل جنوده على مقربة من عكا دون أن يلاقى أية مقاومة ، وشرع يوحد قواته مع قوات الصليبيين الذين كانوا وقتئذ معسكرين فيها . ولما حشد جنوده وأعلن عزمه على مهاجمة المسلمين ، ارتد صلاح الدين بجيشه إلى الخروبة ليكتسب الوقت الكافى ، ولكن جو ذلك الموقع كان قد فسد من تعفن الجثث فانسحب منه ؛ وعلى أثر ذلك شدد الصليبيون الحصار ، ولكن أهل المدينة أبدوا فى الدفاع عن مدينتهم بسالة منقطعة النظير ؛ كذلك أخذ الأميران قرقوش وحسام الدين يثيران الحماس فى قلوب الجنود حتى أبدى الجميع حمية وقوة إرادة جديرتين بالإعجاب ؛ واستخدما فى إدخال الميرة إلى المدينة ضروب الحيل والدهاء ، ولم يترك جنود المسلمين فرصة إلا انتهزوها للتنكيل بالفرنج ومباغتتهم[2] ، فكانوا يحرقون آلات المحاصرين ، وفى عدة معارك أجلوهم عن مواقعهم حتى شدد الكونت هنرى الحصار ، ولكن السلطان برغم ذلك كان يزود الميرة عن طريق البحر من بيروت . ولما يئس الفرنج من الموقف أرسلوا إلى البابا حاكم رومة الكبرى كتابا يستنجدونه فأرسل إليهم النجدات من كافة الأمصار ، وعندئذ كثرت جموعهم واشتد بأسهم ، ثم زحفوا بقيادة الكونت هنرى على مواقع السلطان الذى صمد لهم بأحسن تعبئة وأتم نظام ، وكان أولاده الأفضل على والظافر والغازى فى القلب ، بينما كان أخوه سيف الدين قائد الجيوش المصرية فى الميمنة ، كما كان أمراء حماه وسنجار والأمراء الآخرون فى الميسرة . واتفق أن كان صلاح الدين مريضاً فى ذلك اليوم المشهود ، فلم

٢٥ — ٧ — ١١٩٠ م

وصول الكونت هنرى

٢٧ جمادى الآخرة ٥٨٦ هـ — ١ — ٨ — ١١٩٠ م

٥٧٦ — ٥٨٩ هـ

(١) يسميه العرب « الكند هرى » .
(٢) ميشو .

يستطع سوى مراقبة المعركة من خيمته الصغيرة التى أمر بنصبها على تل مشرف على الميدان ، واستمرت الموقعة مدة طويلة ، ولكنها أسفرت عن هزيمة الفرنج ، ولولا المرض الذى طرأ وقتئذ على صلاح الدين لكانت تلك المعركة هى الحاسمة ؛ ويقال إن الفرنج بدأوا فى ذلك الحين يشعرون بهول المجاعة ، كذلك اضطرهم قرب حلول الشتاء إلى أن يرسلوا سفنهم إلى إحدى جزر اليونان القريبة . وكان من جملة الأمراء الذين دخلوا عكا « سيف الدين على » بن أحمد المشطوب قائد الحامية ، التى لسوء الطالع لم تستبدل بغيرها كما ينبغى ؛ وبالرغم من أوامر السلطان الحاسمة أضاع الأمراء تلك الفرصة ، وأهملوا إرسال المؤونة والأرزاق الكافية إلى المدينة ؛ فلما حل فصل الربيع عادت سفن الفرنج أكثر عدداً مما كانت قبلا ، وقطعت المواصلات بين السلطان وبين حامية عكا ، ولم يعد ثمة طريق لإرسال الكتب إلى السلطان إلا بواسطة الغواصين .

٩ — ٤ — ١١٩١ م

١١٨١ — ١١٩٣ م

وصول ملك الإنكليز ١٣ جمادى الأولى ٥٨٧ هـ ٨ — ٦ — ١١٩١ م

وفى ١٢ ربيع الأول سنة ٥٨٧ جاءت إمدادات جديدة إلى الفرنج المعسكرين فى منطقة عكا ، وكان أول من وصل منهم « فليب » ملك فرنسا ، الذى يعد من أشرف ملوكهم نسباً ، وكان على رأس حملة قوية ، وفى الحال أرسل صلاح الدين الذى كان معسكراً « بشفرعم »[1] الأمداد إلى قواده ، ولكن ملك الإنكليز كان قد وصل فى عشرين[2] سفينة مملوءة رجالا وأموالا فعظم به شر الفرنج الذين اشتدت وطأتهم على المسلمين ، « وكان ملك الإنكليز رجل زمانه شجاعة ومكراً وصبراً » ؛ فلما وردت الأنباء بوصوله أمر صلاح الدين بتجهيز سفينة مجهزة بالرجال والعدد والأقوات ، وأرسلها من بيروت إلى عكا ، غير أن الصليبيين هاجموها وكادوا يستولون عليها ، لولا حذق ربانها[3] يعقوب

---

(١) قرية تبعد ٣ أميال من عكا (معجم البلدان) .

(٢) يقول ابن الأثير : إن ملك انكلتره وصل إليهم فى خمس وعشرين قطعة . (المعرب)

(٣) كان ملك انكلتره وفرنسا قد أصيبا بالحمى عقب وصولهما إلى فلسطين . فلما سمع =

الحلبى الذى أغرقها فى الحال لئلا يظفر بها الأعداء ، وعندئذ بدأ حصار عكا يشتد ، غير أن الحامية قاومت مدى حين مقاومة شديدة ، وردت المحاصرين فى عدة معارك على أعقابهم مثقلين بالهزيمة . ومما يدعو إلى الأسف أن المسلمين بالرغم من هذه البطولة والتضحيات التى أبدوها لم تصلهم قوات جديدة من أمراء المقاطعات حتى تيقن السلطان بعد عدة معارك رائعة أنه لا يقوى على مقاومة الصليبيين ، وعلى هذا رفع الحصار وبدأ المحصورون ، وقد فتت فى عضدهم الحروب والأوبئة والمجاعات ، يشعرون بقسوة الكفاح الذى استمر سنتين متواليتين . ولما اشتدت عليهم الكوارث وعظمت المصيبة ، خرج مشطوب قائد الحامية إلى فليب أوغسطوس وخاطبه بقوله : « لقد قضينا أربع سنوات ٥٧٦-٥٨٩ هـ
نحكم هذه المدينة ، وعند ما استولينا عليها فى بادئ الأمر أطلقنا سراح أهلها ، ومكناهم من الذهاب بأموالهم وعائلاتهم ، وإنا الآن نسلم إليكم المدينة بالشروط التى سبق أن منحناها لكم » ؛ فرفض ملك فرنسا الإبقاء على حياة السكان وأفراد الحامية ما لم يسلم المسلمون بيت المقدس وجميع المدن التى استولوا عليها من الصليبيين منذ موقعة طبرية ، فعاد الأمير إلى المدينة ، وقد وطد العزم على القتال حتى النهاية ، فإما النصر وإما الموت تحت أنقاض المدينة ، واستمر الكفاح اليائس مدى حين ، غير أن المجاعة كانت تفتك بالمحصورين فتكا ذريعاً ، بينما كان جيش السلطان عاجزاً عن مساعدتهم لقلة عدد جنوده ؛ وأخيراً سلم أهل المدينة على شرط الإبقاء على حياتهم ، وعلى أن يرد المسلمون من جهتهم صليب المسيح ، ويقدموا ألفاً وستمائة أسير ومائتى ألف دينار لرؤساء الصليبيين ؛ ولما مذبحة الصليبيين
حدث بعض التأخير فى دفع الفدية أخرج « ريكاردوس ملك انكلترا » جنود الحامية وذبحهم بمرأى ومسمع من إخوانهم . ويقال إن الصليبيين خسروا فى الاستيلاء على حلب ستين ألف مقاتل .

= السلطان صلاح الدين بمرضهما أرسل إليهما فى الحال الثلج من جبال لبنان والفواكه الطازجة فى أثناء مرضهما .

ويقول ميشو : « إن الصليبيين المنتصرين تمتعوا أخيراً فى مدينة «حلب» عندما استولوا عليها براحة لم يعهدوها منذ أن وصلوا إلى الشام ، فانغمسوا فى ملذات الترف ، ونعم الحياة ، ونشوة نبيذ قبرص ، ومغازلة النساء اللواتى أتين من الجزر المجاورة ، فكل هذه المباهج واللذائذ حملتهم على أن ينسوا إلى حين الغرض الذى جاءوا من أجله » . وبعد أن أنعشوا النفس زحفوا بقيادة « ريكاردوس » على عسقلان ، وكان السلطان يسايرهم حتى بلغ عدد المعارك التى نشبت على طول الطريق الذى لم يزد طوله عن المائة والخمسين ميلا إحدى عشرة موقعة ، وخسر صلاح الدين فى موقعة «أرسوف» وحدها ثمانية آلاف من أشجع جنوده ، ولما رأى أن جيشه أضعف من أن يحول دون تقدم القوات الصليبية الهائلة أسرع إلى « عسقلان » ، ونقل سكانها ثم خربها ولم يتركها إلا بعد أن أصبحت أرضاً يبابا ؛ فلما وصل ريكاردوس وشاهد بنفسه خرائب تلك القلعة التى كانت تعد من أقوى الحصون ، وأدرك أنه أمام خصم جبار عنيد أثرت فيه تلك الشخصية العظيمة أيما تأثير ، وفى الحال فتح معه باب المفاوضة لعقد معاهدة صلح بعد أن يئس من معارك غير مثمرة لا طائل تحتها ، وكان فوق ذلك يتوق إلى العودة إلى بلاده التى بدأت تعصف بها ريح الفوضى ؛ فأرسل وفداً يطلب المفاوضة مع أخى السلطان سيف الدين الملك العادل فتقابل الأميران ، وكان ابن همفرى[1] يترجم بينهما ، فأبدى ريكاردوس رغبة شديدة فى عقد الصلح ، وذكر شروطه ، ولكن السلطان رأى استحالة إجابتها ، ولهذا فشلت تلك المفاوضات وكان المركيز مونتفرات وقتئذ يسخط على تصرفات ريكاردوس ، فأرسل وفداً إلى السلطان يعرض عليه الصلح من جديد ، ويشترط لذلك أن يمنحه صيدا وبيروت ؛ فاستجاب السلطان لدعوته على أن يقوم هو أولا بتنفيذ الشروط ،

١١٨١ — ١١٩٣ م

الملك رتشارد يطلب الصلح

(١) يقول بهاء الدين ابن شداد إنه رآه فى يوم عقد الصلح ويصفه بأنه كان جميل الطلعة غير أنه كان يحلق لحيته على عادتهم .

ولـكن ما انقضت مدة وجيزة حتى وصلت الرسـل من ملك انكلترا يعرضون مقترحات أخرى ومعهم كتابان إلى « أخيه وصديقه » الملك العادل والسلطان . وكانت الشروط الوحيدة التى عرضها الصليبيون هذه المرة هى أن يسمح لهم بالاحتفاظ بالمدن التى بأيديهم ، وأن يرد إليهم بيت المقدس ، وخشبة الصليب الحقيقية ؛ فرفض السلطان إعادة القدس رفضاً باتا إلا أنه أعرب عن استعداده إلى إعادة خشبة الصليب على شرط أن يعقد الصلح طبق رغباته . ٥٧٦ـ٥٨٩ هـ

المفاوضات

ولـكن ملك انجلترا لم يلبث أن استأنف مفاوضاته ثانية مع الملك العادل وتوصل معه إلى وضع مسودة اتفاق يعرض فيما بعد على السلطان ومجلسه للمصادقة عليه ، وكانت شروطه أن يزوج أخته « أرملة ملك صقلية » من الملك العادل ، وأن تعطى عكا وما بيد الفرنج من البلاد إلى أخته الآنفة الذكر ، وأن يعطى كذلك ما بأيدى المسلمين من بلاد الساحل إلى العادل ، بل أن يحكم الزوجان مدينة القدس بصفة كونها مدينة محايدة حرة لأتباع الديانتين ، وأن تستبدل الأسرى ، ويعاد الصليب للمسيحيين ، ويحتفظ الرهبان بامتيازاتهم . فرأى السلطان فى هذه المقترحات وسيلة لإعادة السلم بين أهل الديانتين ، ولهذا لم يتردد قط فى قبولها ، ولو أن الـكهنة سمحوا وقتئذ بتوقيعها لقربوا مسافة الخلف بين العالمين المسيحى والإسلامى . غير أنهم أثاروا اعتراضا شديداً على فكرة تزوج أميرة مسيحية من بطل شجاع وأمير كريم كسيف الدين وراحوا يهددون الملك بالحرمان ، كما أخذوا يضربون على وتر العقيدة الدينية والأوهام التقليدية حتى ضمنوا رفض الملـكة ، فروع ريكاردوس من تهديداتهم ؛ وأرسل وفداً إلى صديقه يطلب إليه أن يعتنق المسيحية ، ولـكن الأمير رفض بالطبع سماع مثل هذا الرأى السخيف رفضاً باتا .

مقتل كونراد ١ — ٥ — ١١٩٢ م

وفى تلك الأثناء وفدت على السلطان بعثة أخرى من المركيز ، غير أن ملك انكلترا كان قد أرسل مقدم الإسماعيليين يحرضه على الغيلة من حليفه المزعج ؛

١١٨١ — ١١٩٣ م

فلم يلبث رئيس الإسماعيلية أن انتدب فدائيين فقتلاه فى السادس عشر من ربيع الآخر سنة ٥٨٨ هـ[1] ، وعندئذ زحف ريكاردوس ملك انكلترا فى جيش كبير على بيت « المقدس » ، ولكنه منى بشر هزيمة فاشتدت بذلك رغبته فى مغادرة فلسطين ، وبعث وفداً آخر إلى السلطان يعرض عليه شروط الصلح . ومما قاله إنه يود أن تعقد بينهما أواصر الصداقة والود ، وإنه لا يطمع فى امتلاك أرض المسلمين ، ولهذا فإنه يقطع الكونت هنرى ابن شقيقته البلاد التى كانت بيده ويتركه فى رعاية السلطان . ومن قوله أيضاً : إن الكونت سيلبى أوامر السلطان ويصحبه فى غزواته فى الشرق ، وإنه لا يطلب من صلاح الدين غير كنيسة القدس وحدها . فأرسل السلطان بعد أن استشار قواده — ولا سيما أنه كان قد شعر بحاجة البلاد إلى الطمأنينة والهدوء ، ورغبة الجيش فى الراحة بعد هذا الضنك والبؤس الشديدين — جوابا وديا ، وعادت البعثة هذه المرة ومعها ابن الكونت هنرى يحمل الهدايا النفيسة من ملك الإنكليز ، وأعلنت تنازل الصليبيين عن بيت المقدس ، ولكنها طلبت مقابل ذلك منح الكونت المدن الثلاثة : عسقلان والداروم وغزة ؛ فرد السلطان عليهم أنه لا يمكنه إعطاء الملك غير مدينة « اللد » وحدها . ولما علم أن الصليبيين يزحفون على بيروت أمر جيشه بالزحف فاستولى على يافا ، وعندئذ طلب ملك إنكلترا ثانية إلى الملك العادل استئناف المفاوضات ، وألح عليه أن يرسل وفداً عنه ليقروا شروط الصلح ؛ وحالما وصل الوفد الإسلامى أخذ ملك إنكلترا يشيد بذكر السلطان ومزاياه ، ثم ناشد الأمراء أن يقنعوه بعقد الصلح فأجابهم صلاح الدين إلى طلبهم ، وأقطع ملك الإنكليز ساحل البحر من صور إلى قيصرية ، غير أن ريكاردوس طلب هذه المرة إعطاءه يافا وعسقلان ؛ فقبل السلطان أن يقطعه يافا وحدها رافضاً التنازل عن عسقلان مهما كلف الأمر .

---

(١) فون هامر فى كتابه تاريخ الحشاشين .

عقد الصلح فى ٢٢ شعبان سنة ٥٨٨ هـ ٢ أيلول سنة ١١٩٢ م

وأخيراً تنازل ملك إنكلترا عن المطالبة بعسقلان ، وفى الحال عقدت شروط الصلح ، « وصدر بيان بذلك فسادت الطمأنينة ، وانتشر الأمن فى ربوع البلاد وضمنت حرية الشعب فى التنقل ، وكان يوم إعلان الصلح يوما مشهوداً ففرح الناس فرحا شديداً ، وعادت الجنود إلى أوطانها بعد أن كانت قد جاءت من الأصقاع البعيدة لتعزيز الجيش المرابط فى فلسطين والشام » ، ولم يلبث ريكاردوس أن عاد إلى بلاده ؛ أما ما حدث له بعد ذلك فأمر لا يجهله قراء تاريخ إنكلترا .

نهاية الحرب الصليبية الثالثة

وهكذا انتهت الحرب الصليبية الثالثة التى هلك فيها عدد لا يحصى من الناس ، وخربت آلاف الدور العامرة فى الشرق والغرب ، وخسرت ألمانيا أحد براطرتها العظام ، كما فقدت فرنسا وإنكلترا زهرة فرسانها ، ولم تكسب المسيحية شيئا غير عكا ! !

وبعد سفر ريكاردوس استراح صلاح الدين قليلا فى القدس . ثم سار تحرسه كوكبة من الفرسان نحو الساحل ليتعهد الثغور ، وأمر بإصلاح ما خرب منها ، كما شيد فى القدس مستشفى ومدرسة وولى على المدينة سكرتيره[1] ومترجم حياته ، ثم عاد إلى دمشق ، وبقى فيها هو وأسرته حتى وافته منيته يوم الأربعاء ٢٧ صفر سنة ٥٨٩ . ويقول كاتب مسلم : « كان يوم وفاته نكبة على الإسلام والمسلمين ، كما كانت مصيبة لا تعدلها إلا مصيبتهم بوفاة الخلفاء الراشدين ، فعم السراى والإمبراطورية بل العالم أجمع الحزن العميق ، وعلا الصياح والبكاء والنحيب فى المدينة على وفاته » .

وفاة صلاح الدين ٤ — ٣ — ١١٩٣ م

وهكذا توفى عظيم من أشهر العظماء ، وبطل من الأبطال الذين قلما يجود بمثلهم الزمان . وتقول لنا الرواية : إنه كان قد أمر قبل وفاته بتوزيع المال على الفقراء دون تمييز بين الجنس والدين ، ويكفى دليلا على كرمه أنه لم يخلف فى

صفاته ومناقبه

(١) اسمه حورديك . وهو من المماليك النورية . (المعرب)

خزائنه غير دينار واحد و ٣٦ درهما أرسلت إلى بغداد مع الرسول الذى نعاه إلى الخليفة . ويمكن الحكم على أخلاقه من وصف معاصريه له بأنه كان كريماً حليما حسن الأخلاق ، متواضعاً صبوراً على ما يكره ، كثير التغافل عن ذنوب أصحابه ، صديقاً للعلماء والأتقياء ، حريصاً على أن يكونوا فى معيته ، وكان يعاملهم دائما بالعطف والإحسان .

ومن مآثره أيضاً أنه شيد الكليات والمستشفيات فى جميع أنحاء الإمبراطورية وكان وزير السلطان القاضى الفاضل[١] — الذى استوزره ثلاثة سلاطين من آل بويه — يتنافس مع سيده فى تكريم العلماء وتشجيع العلم ، كذلك لم يكن مجلس صلاح الدين مؤلفاً من القواد أمثال قرقوش وحسام الدين ومشطوب فحسب بل كان للعلماء فى ذلك المجلس مكانة عظيمة ؛ ومن جملتهم القاضى والكاتب عماد الدين سكرتير السلطان والقاضى الحقارى الذى غالباً ما استبدل لباس القضاء الفضفاض ببزة الجندى[٢] المتفانى .

---

(١) هو أبو على عبد الرحيم الملقب بالقاضى الفاضل ، وينتسب إلى عائلة عربية أصيلة اسمها « لخم » ؛ ومسقط رأسه مدينة عسقلان .

(٢) يصف الرحالة المشهور عبد اللطيف البغدادى السلطان بعد أن عقد الصلح مع الملك ريتشارد بقوله : إنه يستميل إليه القلوب . وإن أول مساء قضاه بصحبته رأى أنه محاط بالعلماء الذين كانوا يتناقشون فى كل فرع من فروع العلم ، وكان يصغى إليهم بفرح وسرور ، وغالباً ما كان يشترك معهم فى المناظرات ، وكان فى تلك الأثناء يهتم بتشييد أسوار بيت المقدس ، فكان يشرف على العمل بنفسه ، بل كثيراً ما كان يحمل الحجارة على كتفيه وكان يذهب إلى محل العمل قبل شروق الشمس ، ثم يعود عند الظهر فيستريح قليلا بعد تناول الطعام ، وفى العصر كان يذهب إلى محل العمل فلا يعود إلا على ضوء المشاعل . وكان يقضى معظم الليل فى النظر فى شؤون اليوم التالى .